رواية خربة الأولياء

القدس: ٢-٨-٢٠٠٥ناقشت ندوة اليوم السابع رواية" خربة الأولياء" للأديب **ربحي الشويكي.** صدرت هذه الرواية **عن منشورات اتحاد الكتاب الفلسطينيين** في رام الله عام ٢٠٠٥، وتقع في ١٩٢ صفحة من الحجم المتوسط، وصمم غلافها الفنان **حسني رضوان.**

بدأ النقاش **جميل السلحوت** فقال:- ربحي الشويكي أديب فلسطيني ولد في القدس عام ١٩٤٥، درس علم الآثار في تركيا، وعمل في الصحافة المحلية الصادرة في الأراضي الفلسطينية، وهو عضو مؤسس لاتحاد الكتاب الفلسطينيين، وعضو هئيته الإدارية لأكثر من دورة، صدرت له رواية " أنشودة فرح " عام ١٩٩٠ عن منشورات اتحاد الكتاب الفلسطينيين و" خربة الأولياء" هي العمل الروائي الثاني له، وهي عمل روائي يتضح منه مدى تأثير دراسة الكاتب لعلم الآثار فيه، وإن لم تخني الذاكرة فإن الكاتب قد عمل فترة من الزمن في جامعة بيرزيت ضمن تحصصه، ويبدو أن هذه الحقبة من حياته هي التي دفعته الى كتابة هذه الرواية التي يمكن إدراجها إذا ما تساهلنا في التصنيف تحت باب الروايات العلمية، أو التاريخية ضمن منهجية الوصف في السرد .

وقد اتخذ مسار الرواية بعدين هما-:

1 . البعد الشعبي في مفهوم الأولياء والمقامات.

2 . ما تتعرض له المواقع الأثرية من إهمال وسرقات على المستوى المحلي والعالمي، وأمّا التنقيب عن الآثار فيتم غالبا تحت إشراف بعثات أجنبية لها أهدافها الخاصة والعامّة وهي بالتاكيد ليست لصالح شعبنا وطننا.

أمّا بالنسبة لمقامات الأولياء والصالحين في المفهوم الشعبي، فقد كان واضحا في الرواية مدى الخرافات والأساطير التي تحاك حول هذه المقامات، وحول ساكينها من العصور الغابرة، وما يتحلون به من كرامات ومعجزات ابتدعها الخيال الشعبي، ومعروف أن بلادنا فلسطين مليئة بالمقامات التي تحمل أسماء يهود وقديسين مسيحيين، وصحابة وأولياء مسلمين، وفي بعض القرى والمدن أشجار بلوط معمرة تأخذ طابع القداسة كالمقامات.

وقد اختلف المؤرخون حول بداية اتخاذ بعض القبور مقامات، فقال بعضهم أنها بدأت زمن الأيوبيين الذين نشروا المقامات، وعملوا لها المواسم في فترة أعياد الفصح، لتكون ردا على احتفالات الصليبيين الفرنجة الذين غزوا المشرق قبل عشرة قرون، وقال بعضهم أن الفاطميين هم الذين استخدموا الموالد والمواسم والأعياد الدينية كنوع من مجاراة الأقباط من مصر، وقال بعضهم أن المقامات في فلسطين بنيت زمن المماليك، و يرى البعض أن الناس اتبعوا المقامات لايجاد وسيط بينهم و بين الله، وهي ظاهرة غير موجودة في الدين الإسلامي، لكنها موجودة في اليهودية والمسيحية .

وقد انتشرت المقامات في فلسطين بشكل كبير حتى لا تكاد تخلو قرية أو مدينة من وجود مقام على الأقل، وبعض هذه المقامات لأشخاص مجهولي الهوية، ولا يعرف الا اسمهم الأول، لكنهم يشتركون جميعهم في الكرامات والمعجزات التي حاكها الخيال الشعبي حولهم، وقد استغل الكاتب الأسطورة والخرافة الشعبية

بطريقة جيدة لخدمة عمله الروائي، لذا فقد وردت مقاطع كثيرة في الرواية تبين مدى خوف عامة الناس وحتى الخاصة من المشاركين في التنقيب عن الآثار، ومن الاقتراب من المقامات أو القبور القديمة خوفا من أن يلحق بهم الأذى. حتى أن بعضهم أكد مزاعمه القائله برؤية هياكل عظمية تتحرك فيها وتمثل موجوداتها وكنوزها .

أمّا القضية الأخطر التي توسع الكاتب في طرحها فهي قَضية التنقيب عن الآثار، والتي من خلال الرواية تبنتها إحدى الجامعات المحلية، وأعتقد أن الكاتب هنا يقصد جامعة بيرزيت، فالتنقيب لا يتم إلّا بتمويل وإشراف جهات أجنبية، فالدكتور جاك البريطاني الذي جاء من جامعة لندن لاستكمال رسالته للدكتوراة حصل على التمويل للتنقيب عن الآثار في إحدى المواقع من خلال الملحق الثقافي البريطاني، وبدون الدكتور جاك وبدون إشرافه لن يكون هناك تمويل، وبالتالي لن يكون هناك تنقيب عن الآثار، ولاحظنا في الرواية أن الدكتور جاك لم يكن هدفه خدمة العلم بمقدار ما كان لاثبات ما سماه الحقبة الإسرائيلية في هذه البلاد، ولو كان على حساب التسميات والمصطلحات العلمية التي اصطلح عليها علماء الآثار، وهذا ولد ردة فعل عند زكي ذلك الفلسطيني الذي حصل على الماجستير من جامعة لندن، ويريد الحصول على الدكتوراة، وكان معنيا بتثبيت مصطلح الفترة الكنعانية كرد على الدكتور جاك، وكي يثبت عروبة وفلسطينية هذه الأرض من خلال علم الآثار ايضا.

وقد اختار الكاتب خربة "تلّ الربيع" للحفريات، واعتقد أنها خربة وهمية، تقع على شاطئ البحر، وفي تقديري أن الكاتب لم يوفق في هذا الاختيار، اللهم إلّا اذا كانت الخربة في منطقة قطاع غزة، لأنها هي الجزء المتبقي للفلسطينيين على شاطئ البحر المتوسط، وإذا كانت موجودة حقيقة في قطاع غزة فلماذا لم يتم

اختيار منطقة من الضفة الغربية؟ خصوصا وأن الكاتب أورد مرات كثيرة كيف كان يعود المنقبون الى رام الله قرب الجامعة؟
لكن المهم هو عملية التنقيب وهيمنة الدكتور جاك عليها ومحاولته اليائسة لاثبات معتقداته السياسية لخدمة اسرائيل، والتلميح الى أنه هو الذي يقف خلف عمليات سرقة الآثار، ووضعها في صناديق ونقلها الى رام الله ليحملها معه الى لندن أو غيرها من العواصم لخدمة أهدافه، وبالتاكيد إنه استعان بلصوص آثار محليين أو مأجورين رآهم الآخرون أو تخيلوهم هياكل عظيمة متحركة، تحمل صناديق حديثة من التي تستعملها بعثه التنقيب، ومع ذلك لم يحاولوا القبض عليهم أو استرجاع المسروقات منهم، بمن فيهم زكي الذي لم يكن له أيّ مبرر للسكوت عما شاهده بعينيه من سرقات، حتى ولو كان مبرره الحصول على منحة دراسية للحصول على شهادة الدكتوراة.

وقد أجاد الكاتب في وصفه العلاقة بين زكي وأمل من جهة، ورمزي وخلود من جهة أخرى، هذه العلاقة التي قادت أو تقود الى الزواج، كما أجاد في قضية الاحتفال الفوكلوري الذي اقترحه زكي ليثبت من خلاله أن الشعب الفلسطيني شعب حضاري له ثقافته الشعبية المميزة. كما أجاد الكاتب في لفت الانتباه الى قضية إهمال المواقع الأثرية، وكيف أنها تتعرض للنهب والسلب من لصوص احترفوا هذه المهنة مقابل ثمن بخس يحصلون عليه، ولا يعلمون أنهم يبيعون ويضيعون تاريخ وطن وثروات شعب .

أسعد أبو صوي قال :

جاءت الرواية متوازنة في إظهار شخصياتها، وأخذت كل شخصية نصيبها بعناية، فالشخصية الرئيسية في الرواية هي زكي ذلك الشاب الطموح والذي

يعمل بجد و اجتهاد، وهو في النهاية ليس إلّا جنديا مجهولا، كما وتلاحقة الأقاويل في كل ما يقوم بعمله سواء على الصعيد العملي أو على صعيد حياته الخاصة .

طرحت الرواية عدة قضايا مهمة ومنها الأسطورة وتأثيرها في المجتمع سواء كان ذلك على الصعيد العملي أو الخارجي، فالخربة مسكونة بالجان والعبث بقبور الأولياء ومقامات الصالحين يقود الى الموت كما حصل للدكتور الأجنبي عندما حاول هدم أحد القبور، أو حينما مات دياب زيدان حيث انهارت عليه حجارة الجدار عندما حاول اغتصاب زوجة الحاج عطا وهي تحرث الأرض. يبدأ زكي في القصة متأثرا بهذه الأحداث وهذه الاقاويل، بل وتزداد ظنونه بوفاة أحد أعضاء البعثة خلال موسم سابق كما سبق وذكر.

الشرق ساحر ومليء بالاساطير، ولكن الغرب لا يخلو من بعضها أيضا، حيث ذكرت إحدى المتطوعات من النرويج بأن والدها الصياد ذهب الى البحر بحثا عن عرائس البحر ولم يعد، والأسطورة تقول أن أحدهم كان على علاقة مع إحداهن فعرضت عليه الزواج ، إلّا أنها تنتظر ظهور عرائس البحر لتسألها عن مصير والدها. لم يكن الكاتب مؤيدا للأسطورة ولا نافيا لها، حيث عرض بعض الجوانب التي تدعم وجودها، ولمح في أكثر من موقف الى احتمال أن تكون من صنع البشر ولا غبار في ذلك، فالذي أشهر الكاتب باولو كوميلو البرازيلي هي روايته "الخيميائي" التي تستند قي مجملها الى الأساطير الشرقية، واتخذت الرواية عدة مسارات أخرى، فهي تارة تجوب العواطف والمشاعر الإنسانية بحيث تضيف دفئا للقصة، وتارة تدخل في التراث لتخرجه بصورة جميلة، حتى تفكير الناس البسطاء مثل ما ورد في قصة أبوعلي، ومجيء مولود ذكر له اسماه خليل، تماشيا مع الحلم ،وتنازله عن اسم علي.

وعبرت الرواية عن جمال روح المشاركة الجماعية في الانجاز عن طريق تنظيف الفرق لشوراع القرية، وتحفيز أهلها على تنظيفها ايضا.
ويبقى الجد في المسار التاريخي الأثري في القصة بحيث يثبت زكي في النهاية وجود الفترة الأموية عن طريق الكشف الأثري.

رأيت أن أتطرق الى عنصر واحد من عناصر هذه الرواية راجيا أن يتسع صدر الكاتب لما أقوله، وهذا العنصر هو اللغة والأسلوب، لم تكن لغة الرواية بالمستوى المطلوب، فقد جاءت خالية من التشويق والإثارة.
وعندما جاء ليتكيء على الحوار بين شخصيات الرواية، فإنه فشل في استخدام الحوار الذي لم يخدم النصّ، بل إنه أضرّ به أكثر مما أفاده.
وأخيرا فإن كاتبنا لم ينجح في استخدام الروابط المناسبة بين الأفكار.

خليل سموم قال :
موضوع جيد تناوله الكاتب في روايته، وهو إظهار سيطرة البعثات الأجنبية على المقرات الأثرية في بلادنا، ومحاولاتها تشويه تاريخ فلسطين، من خلال إخفاء وطمس معلم التاريخ العربي لفلسطين في المكتشفات الأثرية.
الرواية واقعية مشوقة، بسيطة، واضحة، هادئة، ذات أهداف تربوية إيجابية، ملأى بالمعلومات المفيدة، محدودة الزمان والمكان ذات لغة قوية، ولو أنها لم تخل من بعض الأخطاء، فيها تفاؤل، وفيها تناسق جيد بين السرور والحوار، فلم يطغ أيّ منهما على الآخر، عنوانها جيد، وهو المكان الذي جرت فيه أحداث الرواية.

شخصيات الرواية كافية مع الحدث، والصراع لديها داخلي وخارجي، وجار بشكل متواز ومتناسق، ولأن الكاتب ابن القدس بشكل خاص، وابن فلسطين بشكل عام، فقد أجاد في وصف الأمكنة.

معظم أبطال الرواية طيبون، صادقون، يتصرفون على سجاياهم،وأكثر شخصية أعجبتني هي شخصية زكي، فهو ذو أخلاق عالية، متعلم، مثابر جاد، جريء، مكافح، عنيد، ذو قلب طيب، مبادر، ملتزم، وطني، يحب بلده وأبناء قومه، وقد ركز الكاتب على شخصيته من كان النواحي، حتى يجعله مثالا جيدا لشبابنا ليحتذوا به.